مقدمة

شاءت الأقدار أن أولد فى حى غيط العنب بالإسكندرية، وهو حى تسكنه نسبة عالية من المسيحيين، وحين أدركت ما حولى وجدت نفسى أسكن فى منزل صغير مكون من أربع شقق، ثلاث منها يسكنها مسيحيون، وليس بالمنزل كله من مسلمين سوى أسرتى. كانت الأسر كلها ترتبط بعلاقات جميلة، إلى حد لا أكاد معه أن أشعر بفرق. ولم يكن يفصل بين هذا البيت وكنيسة مارجرجس غير بيت واحد. وحين صرت فى سن المدرسة أدخلتنى أسرتى إلى مدرسة شباب الإصلاح القبطية الأرثوذوكسية، وأذكر أنى وجدت معظم التلاميذ فى هذه المدرسة من المسلمين، وبحكم التلازم فى الفصول وفى اللعب لم يكن بين التلاميذ المسلمين والمسيحيين من فوارق. ربما كان الفارق الوحيد الذى لفت انتباهى فى هذه السن المبكرة هو أن الإخوة المسيحيين يتركون الفصل وقت حصة الدين لكى يقوم أحد الآباء بشرح الدرس لهم، أما نحن فيأتى لنا شيخ معمم.

كانت بنت صاحبة المنزل الذى نسكنه مُدرسة فى المدرسة، ولذا اختارتها أمى لتقوم بالتدريس لى ولإخوتى، وقد ظللت على علاقة بهذه المدرسة طوال عمرها. وكنت أعاملها باعتبارها خالتى وتعاملنى باعتبارها أمى.

وأذكر أن سكان البيت كانوا لا يأكلون أى حلوى يصنعونها وحدهم، بل ترسل الواحدة منهن طبقا مما صنعته لكل جارة، فتحتجز الجارة الطبق لديها حتى تصنع شيئا من الحلوى ثم تعيده مملوءا.

وقد شاء أبى تغيير السكن فاختار منزلا مواجها للكنيسة، لأن شققه كانت أوسع، ويمكن أن تستوعب أسرتنا التى كبرت. ثم شاء أن أنتقل من مدرسة شباب الإصلاح إلى مدرسة أخرى، فنقلنى إلى مدرسة التربية الحديثة، وهى مدرسة يمتلكها رجل مسيحى اسمه عدلى عياد كان من الشخصيات العامة فى الحى.

عند ذهابى وعودتى من المدرسة كنت أمر بكنيسة أخرى، لم تكن هذه الكنيسة الأخرى بفخامة كنيسة مارجرجس، لكنها تميزت عنها بأن بها مستوصفا لعلاج المرضى بأجر مخفض، وأذكر أيضا أن أغلب من كانوا يرتادون هذا المستوصف من المسلمين.

ومن الأشياء التى لا أنساها مولد مارجرجس، الذى يقام كل عام، ففى موعده يقوم المسيحيون بتعليق صور مارجرجس على أبواب المنازل، أو على حديد البلكونات، أو عند الشبابيك، وربما وضعوا صورا للسيدة العذراء وهى تحمل المسيح عليه السلام.

يأتى إلى الحى أيضا، قبل الليلة الكبيرة، باعة من كل شكل ولون، فيقيمون الاستعدادات فى الشوارع المحيطة بالكنيسة، لبيع بضائعهم، وأهمها الحمص والحلوى واللبن، واللوحات الدينية لمارجرجس والعذراء والمسيح، والكتب الدينية. كما يأتى للمنطقة أصحاب الألعاب

مثل المراجيح، وألعاب النيشان، ولعبة دفع الطارة التى تقوم على أساس أن يدفع اللاعب طارة من الحديد، ويمكنه زيادة الثقل حسب قدرته ليثبت قوته أمام الجميع. وفى يوم المولد يسير القسس والشمامسة فى الشوارع المحيطة بالكنيسة ممسكين بمفرش كبير مطرز به صلبان عديدة، حيث يمسك كل منهم بطرف بينما الشمامسة يدقون الصنج النحاسية، وكأنهم يبلغون الجميع بأن اليوم هو يوم المولد.

وفى ليلة المولد يأتى إلى شارعنا والشوارع المحيطة باعة الأطعمة المختلفة، مثل الكبدة والطحال والفول والمشروبات الغازية. ويطل نساء المنطقة المسلمات من الشرفات والنوافذ ليتابعن الاحتفال. أما الرجال والشباب والشابات فتجدهم يملأون الشوارع حيث يختلط المسلم بالمسيحى دون تفرقة. بل إن بعض المسلمين يدخلون الكنيسة بدافع الفضول ليروا وقائع الاحتفال.

وكنا فى طفولتنا نكون مجموعات من الأطفال المسلمين والمسيحيين معا، ونتسلل إلى مدخل الكنيسة، ونرصد من يضعون الشموع المضيئة فى الوعاء الكبير المعد لذلك، ثم ننتهز الفرصة لننقض على الشموع حين تغفل عينا خادم الكنيسة ونأخذها لنلعب بها، وحين يكتشف الخادم ما نفعله يشخط فينا، ولأنه يعرف آباءنا يتوعدنا بأنه سيقول لهم، لكنه فى الحقيقة كان رجلا طيبا، ويعرف أن ما نفعله مجرد شقاوة عيال، لذلك نادرا ما كان يستوقف أحدا من آبائنا لكى يشكو له.

بقيت فى هذا الحى، وفى البيت نفسه، حتى تخرجت فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية، والتحقت بالخدمة الوطنية سنة ١٩٦٩، بعد نكسة يونيو، مثل كل أبناء جيلى، فكانت الأمهات يسألن عنا بعضهن، وحين نأتى فى الأجازات يرحبن بنا، كأن كل الشباب أبناء كل الأمهات.

من هذه النشأة وجدت نفسى أتعامل مع الإخوة المسيحيين فى حياتى كلها كما أتعامل مع المسلمين دون تفرقة. وأذكر أنى حين سافرت إلى أستراليا عام ١٩٩٩ والتقيت بالمصريين هناك، وكان من بينهم عدد من المسيحيين، طلبت منهم أن أزور الكنيسة المصرية التى أقاموها على نفقتهم الخاصة، وأن ألتقى ببقية الأسر التى لم أرها. وكان اللقاء فى الكنيسة حميما. وعرفت أن إحدى الأسر تستضيف بقية الأسر أسبوعيا على أطعمة مصرية تذكرهم بالوطن. وشاءت الصدفة أن يكون الطعام المعد فى يوم زيارتى عبارة عن طعمية، ودارت قفشات حول الشىء الذى نهرب منه فيأبى إلا أن يلاحقنا، وفى نهاية الزيارة حملنى الأشقاء ساندويتشات الطعمية لكل من جاء معى من مصر.

كان مرافقى طوال مدة بقائى فى سيدنى شابا مسيحيا من طنطا، سألنى فى فزع: هل حقا لا يمكن زيارة مصر؟

قلت له: لم؟

قال: لأن الإرهابيين يقتلون المسيحيين.

قلت: الإرهابيون يستهدفون بعملياتهم المصريين جميعا، وأغلب الذين يموتون من المسلمين. وبرغم هذا فالأمر ليس بهذه الخطورة. مصر آمنة، ويمكنك الزيارة دون خوف.

وبالفعل جاء هذا الشاب بعد فترة وجيزة إلى مصر، وزارنى فى مكتبى هو وزوجته.

وحين استضافتنى إذاعة سيدنى لكى أتحدث عن الحضارة المصرية حرصت على أن أتحدث عن الكنيسة المصرية الأرثوذوكسية، مفتخرا بها، باعتبارها ملمحا من ملامح مصر المتميزة عبر التاريخ.

ولم أشهد فى حياتى، أو أسمع عما يسمى فتنة طائفية قبل السبعينيات، واستأت جدا من هذا. كيف يمكن لأهل بلد واحد، يسكنون نفس البيوت، ويتزاملون فى الأعمال، ويبيعون ويشترون من بعضهم. كيف يمكن لهم أن يختلفوا لحد الفتنة؟

وحين اطلعت على تاريخ مصر أيقنت أن مثل هذه الفتن لا تحدث إلا فى فترات الضعف، أما مصر القوية فتجدها واحدة لا تميز بين مسلم ومسيحى.

وقد قدمت فى التسعينيات مسلسلا إذاعيا، من خلال الإذاعة المصرية، عن الوحدة الوطنية، بينت فى حلقاته الثلاثين دعائم وتاريخ الود والمحبة بين المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ. وأكرمنى الأنبا بيسنتى أسقف حلوان والمعصرة فأقام لى ولفريق عمل المسلسل حفل تكريم بالدير، ومنذ هذه اللحظة ربطتنا صداقة أعتز بها كثيرا.

وحين قـررت هيئة قصور الثقافة أن تحتفـل بمرور ١٤٠٠ عام على دخول الإسـلام إلى مصر كان من حسن حظى أن أشرف على الاحتفال، وقـد وجدت فى هذه المناسـبة فرصة لتعميق علاقـات الحب بين أبناء الوطن الواحد، فنشرت صفحات كانت مطوية من تاريخ الحب بين أتباع المسيح وأتباع محمد عليهما السلام، وحرصت على أن يشارك المسيحيون فى كل الفعاليات، ولا أنسـى كيف كانت مشاركة الرجل المستنير لعى المطيعى مفيدة وبناءة. وقد ربطتنى به صداقة عميقة حتى توفاه الله.

ولا أريد أن أسترسـل فى الذكريات التى ربطتنى بالإخوة المسيحيين فما أكثرها. لكنى أود فقط أن أؤكد أن هذه العلاقات الطيبة كانت من أهم الأشـياء التى دفعتنى لكى أكتب عن الوحدة الوطنية، التى أراها أساسا لأى مشـروع تقدمى على أرض مصر، لكن إيمانى بهذه الوحدة ليس هو السبب الوحيد لتأليف هذا الكتاب، فهناك سببان آخران لذلك:

١ - اعتقادى أن وحدتنا الوطنية مهددة، وآية ذلك أن رئيس المخابرات الإسـرائيلية السـابق حين أنهى خدمته ألقى كلمـة قال فيها إن ما فعله بشأن خلق توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر لن يزول أثره إلا بعد عشرات السنين.

٢ - إحساسـى بخطورة الأحداث المتتالية التى تضرب مصر، خصوصا بعـد ثورة يناير، حيث يريد أعداء هذا البلد أن يدخلوه فى صراع لا ينتهى من خلال الفتنة الطائفية.

وقـد حاولت أن أجعـل هذا الكتـاب مختلفا عن الكتب السـابقة التى تناولت هذا الموضوع، بأن كتبته بصورة تناسـب القارىء العادى،

مع مراعاة الدقة العلمية؛ حتى لا يكون الكلام مرسلا. كما راعيت أيضا أن أركـز على المشـاهد المضيئة بدلا من الوقوف أمـام الجزء الفارغ من الكوب، لأننا الآن فى أشد الحاجة للوقوف على نقاط الاتفاق بين أبناء الوطن الواحد الذى يريد له أعداؤه أن تمزقه الفتن والانقسامات.

محمد السيد عيد

مدينة أكتوبر / ٢٠١١

أما قبل

قبــل الحديث عن الوحدة الوطنية من المهم أن نقف عند ثلاث نقاط تمثل فى رأيى أساسا للحديث:

أولا: كل المصريين أقباط

يخلط الكثيرون بين مفهومين، هما:

- مسيحى.
- قبطى.

والبعض يســتخدم الكلمتين بمعنى واحد، كما نسمع ونقرأ الآن عن أقباط المهجر، بمعنى مسـيحيى مصر المهاجرين. ولذا أود فى بداية هذا الحديث أن أزيل هذا الخلط.

المســيحيون هم أتباع ديانة المسيح عليه السلام، وهم النصارى، أى الذيــن نصروا المســيح، أما الأقبــاط فهم أهل مصر جميعــا مهما كانت ديانتهم، أو حتى قبل أن تنزل الأديان.

يقــول المستشــار زكى شــنودة فى كتابه «موســوعة تاريــخ الأقباط والمسيحية»:

«قال البعض – وقولهم الراجح – إن الآشوريين عرفوا مصر باسم «سيكو بتاح» وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة ملكهم «منف»،

ومعنـــاه «بيـــت روح بتاح» فلما سمع اليونان هذا الاســـم نطقوه حســـب لغتهم «إيجبتوس» وقد ورد هذا الاســـم عدة مرات فى شـــعر هوميروس. فإذا حذفنـــا علامة الرفع اليونانية فى آخر الكلمة، وهى «أوس» نتجت لنا كلمة «إيجبت». المســـتعملة فى اللغـــات الأوروبية كناية عن مصر، وهـــى مركبة من كلمتين هما «إى» بمعنـــى أرض أو دار، و«جيبت» أى قفط وجفط كما ينطقها أهل الصعيد إلى اليوم، فيكون معنى الكلمتين معا أرض القبط أو دار القبط[1]».

ويقـــول الدكتـــور أحمد عبـــد الحميد يوســـف فى كتابـــه «مصر فى القرآن والسنة»:

«من ذلك اللفظ (قبط) كان اسمها الذى عرفت به عند الإغريق والرومان، ثم عند الأوروبيين، من بعد ذلك، أجمعين. ولم يكن لاسمهم هذا من دلالة على ما كانوا ينتحلون من ملة أو يعتقدون من دين. فكل من فيها إذن قبط وأقباط. ولم يكن ذلك اللفظ إلا تصحيفا لاسم من أسماء مدينتهم منف التى كانـــت فى مصر عاصمة كبرى من عواصم الدنيا والدين، حيث نشـــأ فيها لمعبودهم بتاح معبد عظيم عرف باسم «حت كا بتاح» بمعنى دار روح بتاح، بلغ من الشهرة والعظمة بين المصريين ومن ساكنهم من الجاليات الأجنبية الكثـــيرة أن أضفى اسمه على المدينة كلها، ثم على البلد كله، فإذا بمنف ثم مصر كلها تعرف باســـم «حت كا بتاح»، ومنه كان «إيجبتوس» و«قبط» ثم «Egypt» فالمصريون بذلك قبط وأقباط من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام.

(١) زكى شنودة: موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٥.

وهم كذلك، سواء من أقام على ملة المسيح أودخل فى ملة الإسلام، ولا فرق بين أن يقال مصرى وقبطى[1]».

ثانيا: المصريون كلهم ينتمون لأصول عرقية واحدة

المسلمون والمسيحيون فى مصر ينتمون إلى أصول عرقية مشتركة منذ زمن بعيد، قبل أن تعرف الدنيا المسيح أو محمد عليهما السلام، فحين ذهب إبراهيم عليه السلام إلى مكة كانت معه سيدة مصرية، هى هاجر، أم إسماعيل، ومن هاجر وإسماعيل جاء العرب، فالعرب إذن بحكم المولد نصف مصريين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدماء العربية سرت فى العروق المصرية منذ زمن بعيد لتأكد لنا عمق رابطة الدم بين العرب وأهل مصر. يقول جمال حمدان فى كتابه العبقرى «شخصية مصر» وهو يبين الأصول العرقية للمصريين:

«من المسلم به بعد هذا أن الهجرة العربية إلى مصر سبقت الإسلام بكثير، بل ترقى إلى أقدم عصور تاريخ مصر الفرعونية على الأقل، فسجلات التاريخ الفرعونى تشير باستمرار وبانتظام إلى جماعات البدو الشرقية (التى) تطلب الإذن بالدخول إلى مصر أو تتسلل عبر سيناء من الجزيرة العربية والشام إلى صحراء مصر الشرقية وأطراف الوادى والدلتا حيث تضرب بجذورها إلى الأبد. ومعنى ذلك أن تعريب مصر إن جاز التعبير فى تلك المرحلة، هو سابق للإسلام[2]».

(١) د. أحمد عبد الحميد يوسف: مصر فى القرآن والسنة، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٠٠ – ٢٠١.

(٢) د.جمال حمدان: شخصية مصر، القاهرة، ١٩٨١، ج٢ ص ٢٩٨.

ويضرب أمثلة للتدليل على رأيه:

«من أمثلة هذه المرحلة، قبل الميلاد، هجرة الإسماعيليين من منطقة الحجاز، ثم النبطيين من منطقة مدين. وبعد الميلاد، انتقل فرع من قضاعة الحميرية بالحجاز هو قبيلة بلى إلى سيناء حيث امتدت منازلها إلى الفرما. وكان ذلك فى القرن الأول. وفى القرن الثانى والثالث أيضا وصلت إلى منطقة العقبة قبائل جذام ولخم وربيعة وثعلب وبنو صخر[1]».

ولا تقف المسألة فى رأيى عند قدوم الهجرات العربية إلى مصر بل تمتد أيضا لذهاب المصريين إلى جزيرة العرب، فمن المؤكد أن أساطيل مصر كانت تجوب البحر الأحمر للتجارة وفرض النفوذ المصرى، وقد وصلت إلى بلاد بونت، ولابد أنها كانت تمر بهذه الأراضى الحجازية، ويؤكد ذلك وصول عبادة إيزيس إلى مكة قبل الإسلام، فالمعروف أن العرب فى الجاهلية كانوا يعبدون العُزَّى، وهى إيزيس، إذ إن اسم إيزيس لو حذفنا منه حرف السين الذى فى نهايته، باعتباره إضافة من اللغة اليونانية لصار اسمها الفرعونى «إيزا» الذى حرفة العرب إلى «العُزَّى».

وقد كشفت البحوث الأثرية فى الفترة الأخيرة وجود آثار فرعونية فى شبه الجزيرة العربية مما يؤكد أن هذه الأماكن كانت على صلة بمصر منذ زمن بعيد.

---

(١) شخصية مصر: ج٢ ص ٢٩٩.

وقبيل الإسلام كانت رحلات التجار العرب تأتى إلى مصر فى رحلات تكميلية لرحلة الشام السنوية، وقد نقل لنا التاريخ رحلة عمرو بن العاص إلى مصر قبل الإسلام، وصاغ المؤرخون قصة خيالية تتنبأ بأن عمرو سيحكم مصر.

ومع الإسلام توالت هجرة القبائل العربية وتم التعريب شيئا فشيئا. وساهم فى هذا التعريب دخول المسيحيين فى الإسلام، لأنه مهما كانت أعداد العرب الذين جاءوا من شبه الجزيرة العربية فلم يكن من الممكن لهم أن يجعلوا التعريب بهذا الحجم الهائل. ويقول جمال حمدان:

«من الراجح جدا أن جزءا من تقبل المصريين للعرب الوافدين يرجع إلى إحساسهم وإدراكهم بأنهم بعض أقاربهم وأصولهم وليسوا بغرباء أجانب حقا أو تماما كسابقيهم. إنهم من الناحية الشكلية على الأقل. أى من حيث اللون، بنو جلدتهم. كما أن قرب اللغة العربية السامية من اللغة المصرية القديمة الحامية السامية (عد البعض عشرة آلاف كلمة مشتركة بينهما) قد سهل التقريب بين العنصرين وشجع الامتزاج الكامل بينهما بحيث تحول التعريب إلى بوتقة للشعبين[1]».

ثالثا: قدرة المصريين على استيعاب خلافاتهم

حين نتحدث عن الوحدة الوطنية فليس معنى هذا أن المصريين من المسلمين والأقباط لا يختلفون معا، وأنهم مثل السمن على العسل طوال الوقت، ولو تصورنا هذا لكنا نتصور مصر ميتة، لأن الأموات فقط هم الذين لا يختلفون.

(١) شخصية مصر: ج٢ ص ٢٩٧.

المصريون مثل كل شعوب الأرض يتفاعلون. وخلال التفاعل يمرون بكل العمليات الاجتماعية المعروفة من تعاون وتنافس وصراع. لكن السمة أو الميزة العظيمة لهم أنهم دائما يصلون بالخلاف إلى نقطة اتفاق لصالح وطنهم، ولا يصلون بخلافاتهم إلى حد الحروب الأهلية مثلما نرى فى لبنان مثلا أو العراق. ويظهر معدن المصريين الحقيقى فى أوقات الشدة، مثلما حدث فى ١٩١٠، حين اغتال شاب مسلم رئيس الوزراء المسيحى بطرس باشا غالى لأسباب سياسية. فقد راح الإنجليز ينفخون فى النار، ويصورون الحادث على أساس طائفى، وانصاع لهم البعض. لكن المفاجأة كانت من واصف غالى. ابن رئيس الوزراء الذى تم اغتياله. فقد أصدر بيانا يعلن فيه أنه سوف يتغاضى عن الإساءات التى وجهت ضد ذكرى والده لصالح التآلف، وتعبيرا وإظهارا للأخوة بين الأقباط والمسلمين[1]. وتضايق الإنجليز من تصرفه، فقد كانوا يريدون الاستفادة من الحادث بضم المسيحيين إليهم. وضم واصف غالى نفسه. فقالوا له: «كيف تقف مع من قتلوا أباك؟» فقال: «لكنكم تريدون أن تقتلوا وطنى».

ولم يستسلم الإنجليز، وظلوا ينفخون فى النار حتى عقدوا مؤتمرا فى أسيوط باسم المؤتمر القبطى، ثم رد المسلمون بعقد مؤتمر اسمه المؤتمر الإسلامى، لكن الأمر تبلور فى النهاية بإدراك الجميع أن الوحدة الوطنية هى السبيل الوحيد لنهضة هذا البلد وقوته، كما أنها الطريق لتحرير

(١) د. مصطفى الفقى: الأقباط فى السياسة المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ٤٠.

وطنهم من الاحتلال البريطانى البغيض؛ ولذا رأينا المسلمين والمسيحيين يقفون معا يدا واحدة فى ثورة ١٩١٩.

إن مـــا حدث فى بداية القرن العشـــرين درس بليـــغ لقدرة المصريين على تجاوز خلافاتهم والوصول إلى نقاط إيجابية لصالح وطنهم فى أحلك الظروف.

بعد التأكيد على هذه النقاط الثلاث يمكن أن نبدأ كتابنا...

❑❑❑